

## الرؤية الخلدونية لتجديد مناهج تدريس العلوم الشرعية

د. عزيزة ارموي



الرؤية الخلدونية  
لتجديد مناهج تدريس العلوم الشرعية  
-قراءة في مقدمته-

بقلم:

د. عزيزة ارمولي

جامعة ابن طفيل  
المملكة المغربية

aziza.armouli19@gmail.com



## -قراءة في مقدمته-

\* ملخص البحث

هدف هذا البحث هو رصد الرؤية الخلدونية لتجديد مناهج تدريس العلوم الشرعية، وذلك بالوقوف على مكامن الخلل التي تطرق إليها ابن خلدون في مقدمته، سواء تعلق ذلك الخلل بالمنهج الذي كان متداولاً في التأليف في تلك الحقبة من الزمن، أو تعلق بالطرق التي كانت معتمدة في تلقين الطالب تلك العلوم، مع الوقوف على الحلول المقترحة منه في معالجة هذا الخلل؛ إن على مستوى المنهج المقترح في باب التأليف، كالتركيز على جوهر ذلك العلم وتجاوز الاستطرادات دون إهمال القضايا التي قد تتجاذبها علوم أخرى لأجل الخوض فيها من لدن أهل الاختصاص في إطار ما يسمى بالتكامل المعرفي...

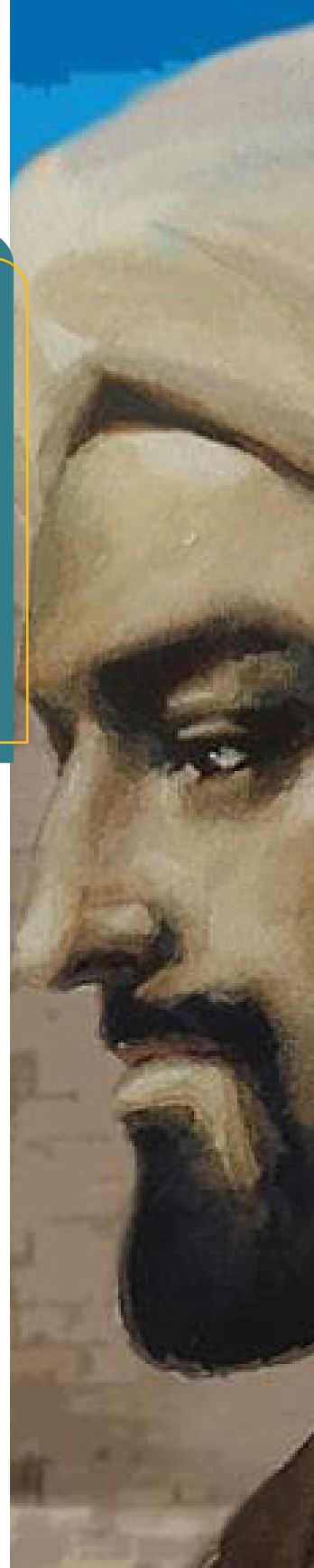
أو على مستوى تجديد مناهج التدريس؛ كالتدرج في تلقين فن واحد مع التشجيع على المناقشة وإبداء الرأي، وعدم التشديد على المتعلم، وكذلك بالتركيز على العلوم الأصيلة التي تقتضي البحث والتفصيل مع الاختصار على العلوم التي هي مجرد أداة مساعدة على التحصيل، دون إغفال التأكيد على الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة باعتبارها مزيد كمال في التعليم...

الكلمات المفتاحية: الرؤية- الخلدونية- تجديد- مناهج- تدريس- العلوم الشرعية.



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعد؛ فلا شك أن للمنهج دورًا بارزًا في تلقين العلوم الشرعية من حيث الشكل المعتمد في تدريسها، فكلما كانت الطريقة المعتمدة في التدريس ناجعة، كان عطاء هذه العلوم لخدمة الأمة والبشرية عطاءً باهرًا على كل المستويات. وهذا ما فطن له أحد الأعلام المبرزين في علم الاجتماع، ويتعلق الشأن بالعالم والمفكر والفقير المشارك عبد الرحمن ابن خلدون من خلال مقدمته الشهيرة التي جاءت لتقدم لنا رؤية ثاقبة ودراسة علمية وازنة في تأصيل شروط النهضة، حيث أكد أن ذلك لن يتأتى إلا بإصلاح المنظومة التعليمية التي هي مرتبطة أساسًا بإصلاح مناهجها. فابن خلدون من خلال قراءته الدقيقة للمناهج التي كانت متداولة في عصره، اعتبر أنه أن الأوان لمراجعة المنهج المعتمد في التأليف وكذلك الطريقة المعتمدة في التدريس، فحدد مكامن الخلل وقدم اقتراحات منهجية لتحقيق الإصلاح، ومن ثم يمكن القول إن الرؤية الخلدونية للتعليم عُولجت من جانبين: جانب توصيفي لمكامن الخلل من حيث التأليف، وكذلك من حيث المنهج المعتمد عند



المعلم في تلقين الطالب تلك العلوم، وجانب آخر يقترح الحلول لأجل الإقلاع بالعلوم الشرعية من خلال إصلاح مناهج تلقينها.

لهذا جاء البحث بعنوان: "الرؤية الخلدونية لتجديد مناهج تدريس العلوم الشرعية: قراءة في مقدمته".

### موضوع البحث:

رصد الرؤية الخلدونية لمكامن الخلل في مناهج تدريس العلوم الشرعية، مع عرض المقترحات التي قدمها للنهوض بهذه العلوم.

### مشكلة البحث:

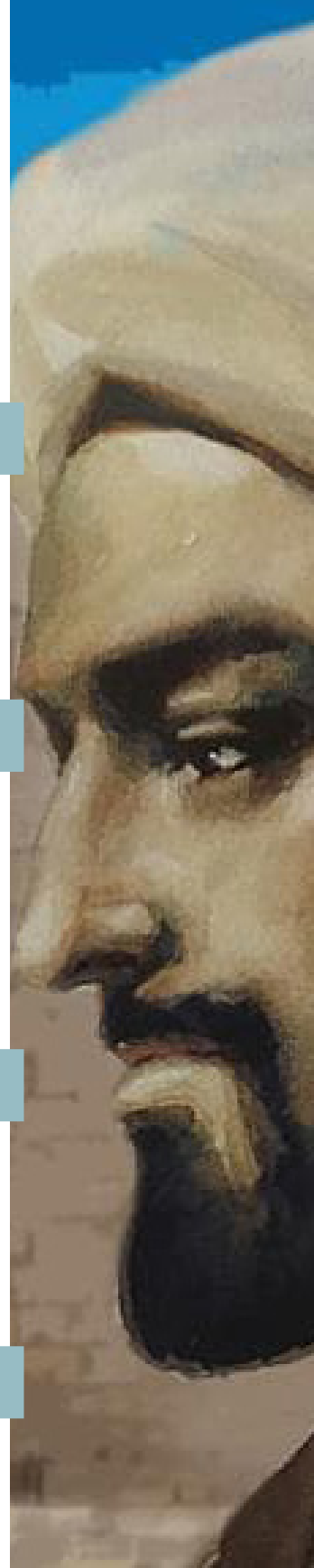
لماذا تأخرت أمة اقرأ مع أنها تملك علوم الوحي، ولماذا لم تخرج لنا مراكز التعليم الشرعي نجباء قادرين على مواكبة قضايا العصر، ومن ثم الإجابة عن كثير من النوازل والمستجدات الطارئة عليه؟

### أهداف البحث:

مناقشة الرؤية الخلدونية لمكامن الخلل في مناهج التأليف والتدريس في العلوم الشرعية، مع تقديم الحلول لتجاوز تلك العراقيل لتحقيق نهضة علمية وازنة.

### منهج البحث:

اعتمد هذا البحث أصالة على المنهج الاستقرائي التحليلي.



## خطة البحث:

حرر هذا البحث في مقدمة ومبشرين:

-مقدمة: تضم أهمية الاهتمام بالمناهج في تدريس العلوم الشرعية مع تحديد موضوع البحث وإشكاليته وأهدافه ومنهج تحريره دون إغفال الخطة التي اعتمدت في مناقشة قضاياها .

-أما المبحث الأول: فتناول بالدراسة والتحليل أنواع الخلل في مناهج التأليف والتدريس من خلال الرؤية الخلدونية.

-وفي المبحث الثاني: رصد الحلول المنهجية التي اقترحها ابن خلدون على مستوى التأليف والتدريس مع دراستها دراسة تحليلية.

-وخاتمة: ضمت أهم الخلاصات.



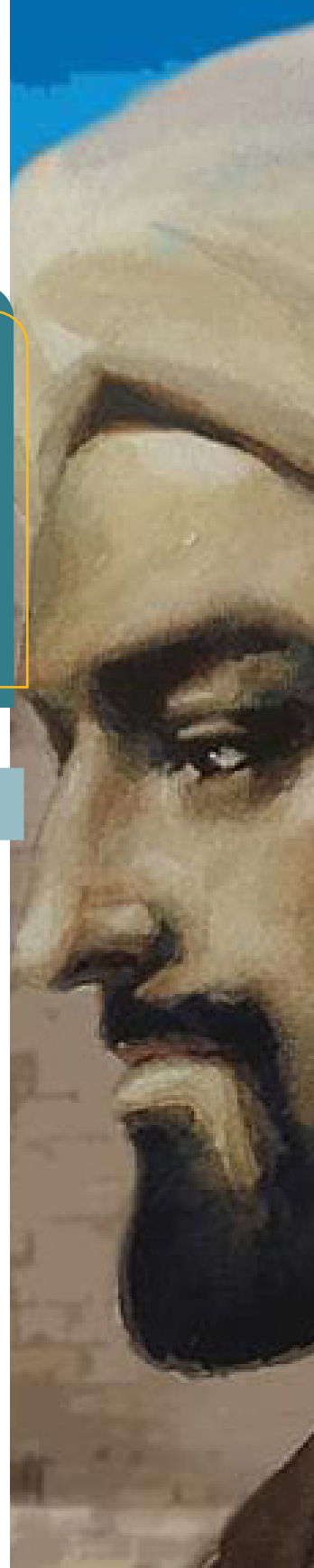


## ★ المبحث الأول: مكانن الخلل في التأليف، وفي منهج تلقين العلوم الشرعية

كانت مهنة التدريس أهم الوظائف التي تقلدها ابن خلدون في كل من جامع القرويين ومجالس العلم بالقاهرة وغيرها، وبناء على هذه الممارسة اكتشف بنظره الثاقب وملاحظته الدقيقة أوضاع التعليم في عصره، حيث استنتج أن مكانن الخلل راجعة بالأساس لعليين أساسيتين: خلل في طريقة التأليف، وأخرى في كيفية التلقين.

### المطلب الأول: المنهج المتداول في التأليف

تميز القرن الثامن بالعكوف على التأليف وإسالة الحبر في تسويد الكتب مع كثرتها وتكرارها، فاعتبر ابن خلدون -برؤية المتفحص، المتبصر لواقع مجتمعه- أن ذلك من شأنه أن يؤخر الأمة ولا يسهم في نهوضها، حتى أنه عقد لهذا الموضوع فصلا كاملا في: "مقدمته"، سماه: "فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عاتقة عن التحصيل" يقول: "اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل"، وقدم نماذج في هذا الباب: كاهتمام العلماء بالشروح الفقهية مما



تفنى معه الأعمار في تحصيل واحد منها، ومثَّلَ لذلك بكتب: "ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه؛ ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد؛ والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها"<sup>(١)</sup>.

وهذه المسألة التي أثارها قد سبقه إليها ثلثة من العلماء الذين عاصروهم ابن خلدون منهم: الأبلي: محمد بن إبراهيم العبدري التلمساني نزيل فاس ودفينها (ت: ٧٥٧هـ)، حث امتعض من الإغراق في الاهتمام بتشييد المدارس والانكباب على التأليف، وكان يقول: "إنما أفسد العلم كثرة التأليف، وأذهبه ببيان المدارس"<sup>(٢)</sup>.

لكنه أيضا انتقص ممن عكفوا على اختصار المسائل في أصولها مع حشوها بكثير من المعاني، حيث اعتبر ذلك انتكاسة ورجوعًا إلى الوراء ولا إفادة منه، يقول: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجًا مختصرًا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن..."<sup>(٣)</sup> ومثَّلَ لذلك بما فعله ابن الحاجب حين اختصر كتب الفقه وأصوله لأجل التسهيل على طالب العلم الحفظ، دون أن يستحضر أن ذلك من شأنه أن يخلط على الطالب بإلقاء الغايات من العلم دون أن يكون مستعدًا لقبولها بعد، وذلك فيه فساد للتعليم، وفيه

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، عبد الرحمن ابن خلدون، (ص: ٥٩٢-٥٩٣).

(٢) ينظر: "نيل الابتهاج"، أحمد بابا التنيكتي، (ص: ٤١٣-٤١٤)، و"نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، أحمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، (٢٧٦-٢٧٥/٥).

(٣) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٧).



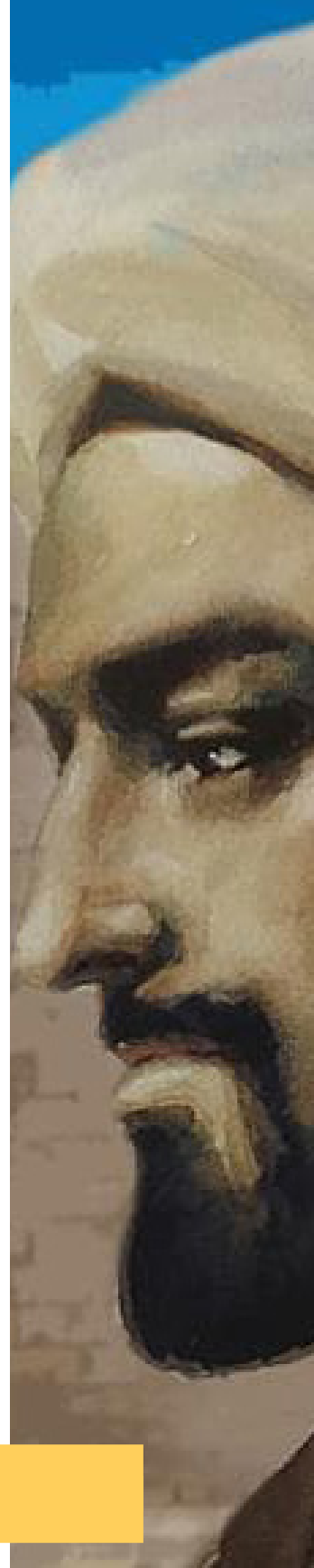
أيضًا إخلال بالتحصيل، يقول: "ربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريبًا للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم، وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطًا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم"<sup>(١)</sup>.

وقد علل هذا الاعتراض لصعوبة استيعاب هذه المختصرات؛ لأن من شأنها أن تقلل من حصول الملكة الكاملة من تحصيل ذلك العلم، يقول: "...لأن ألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت، ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداه ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة، وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدها إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبهم صعبًا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها"<sup>(٢)</sup>.

وهذا ما ندد به الفقيه القباب: أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان الجذامي، الفاسي (ت: ٧٧٨هـ)، حين رأى أن الاهتمام قد انحصر على تحرير المختصرات، ومن جملة من شملهم هذا النصح الإمام الشاطبي يقول الونشريسي: "...وأما ما ذكرت لكم من عدم اعتمادنا على التأليف المتأخرة، فلم يكن ذلك مني بحمد الله محض رأيي، ولكن اعتمدت بسبب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع كتب المتأخرين، وأعني

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) المصدر نفسه.



بالمتأخرين؛ كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومن بعدهم، ولأن بعض من لقيته من العلماء بالفقه -يقصد القباب- أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين، وأتى بعبارة خشنة في السمع، لكنها محض النصيحة"<sup>(١)</sup>.

كما انتقد ابن خلدون على المهتمين بالتأليف في العربية -اعتكافهم على التأليف في طرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل: ابن حاجب وابن مالك، فتدريس الطالب هذه الكتب من شأنها أن تعجزه عن إدراك بعضها، وقد تفنى الأعمار دون بلوغ الغاية لاسيما وأنها من علوم الآلة التي يعتمد عليها في العلوم الشرعية..."<sup>(٢)</sup>

## المطلب الثاني: مكامن الخلل في منهج تلقين الطالب تلك العلوم

ذكر ابن خلدون أن المنهج الذي كان سائدًا عند المعلم في تلقين العلوم الشرعية هو أسلوب الحشو والتلقين، وهذا من شأنه أن يشوش على ذهن الطالب فلا يُحَصِّلُ تعلِيمًا ولا يبلغ غاية، واعتبر أن ذلك راجع لكون المعلم نفسه لم يدرس مناهج التعليم وطرق تحقيق الإفادة، يقول: "وقد شاهدنا كثيرًا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانًا على التعليم وصوابًا فيه، ويكلفونه

(١) يقول الونشريسي: "والعبارة الخشنة التي أشار إليها كان -رحمه الله- ينقلها من شيوخه أبي العباس أحمد القباب وهي أنه كان يقول في ابن بشير وابن الحاجب وابن شاس: فسدوا الفقه". ينظر: "المعيار المعرب"، (١٤٢/١١).

(٢) "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٣).

رعي ذلك وتحصيله، فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات  
الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها<sup>(١)</sup>

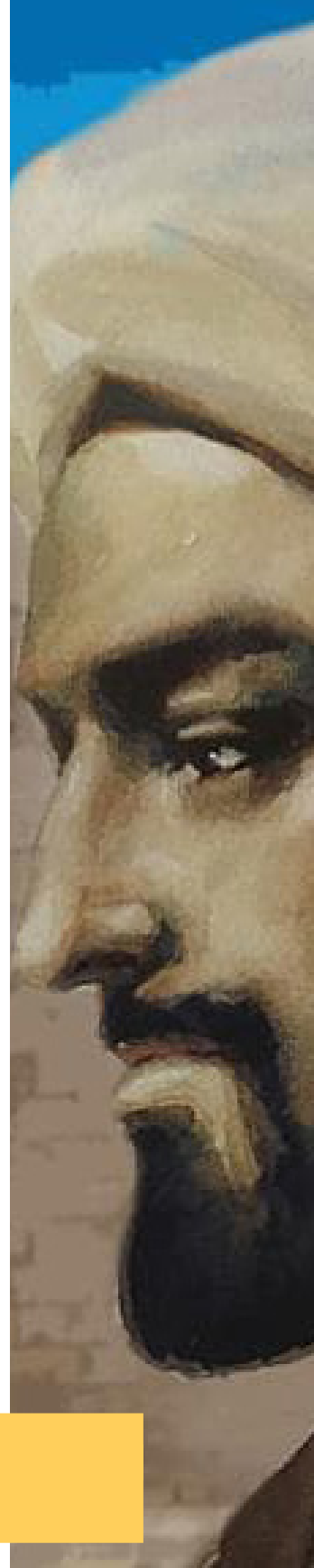
فهذا المنهج -في نظر ابن خلدون- لن يمكن الطالب من  
الاستيعاب لما يأخذه على سبيل الحشو، ولن يكتسب ملكة  
الفهم وحسن المناظرة والمحاورة.

وهذه المسألة الدقيقة قد فطن لها سلاطين ذلك العصر  
منهم: السلطان أبو عنان المريني فقد عمل على تجاوز هذه  
الظاهرة من خلال قصته مع الفقيه "علي الصرصري"، التي  
ساقها المقري في: "أزهار الرياض"، يقول: "ولمّا كمل غرض  
أبي عنان، كبير ملوك بني مرين، من بناء مدرسته بالمتوكلية  
بفاس، وكل بعيد الصيت في علو الهمة، قال انظروا من  
يقري بها الفقه، فوقع الاختيار على الشيخ الصرصري  
الحافظ، ولمّا جلس بها واتسع صيته، وجه إليه أبو عنان  
المذكور من يسأله في مسائل التهذيب، التي انفرد بإتقانها  
وحفظها، وطالبه بتحقيق ذلك وإتقانه، وحسن تلقيه، ولا  
أدري المنتخب له: هل هو أبو عيسى موسى ابن أبي الإمام  
... أم السيد الشريف أبو عبد الله شارح "الجمل" ... أو هما  
معًا، فطالباه بتحقيق ما أورده من المسائل عن ظهر  
قلب، على المشهور من حفظه، فانقطع انقطاعًا فاحشًا،  
ولمّا أضجره ذلك نزل عن كرسيه، وانصرف كئيبيًا، في غاية  
القبض"<sup>(٢)</sup> #.

لهذا اقترح ابن خلدون بعض الحلول لتجاوز هذه المعوقات  
إن على مستوى المنهج في التأليف أو على مستوى المنهج في  
التدريس، وهي التي ستكون موضوع المبحث الثاني.

(١) المصدر نفسه: (ص: ٥٩٨).

(٢) "أزهار الرياض"، أبو العباس المقري، تحقيق: مصطفى السقا- إبراهيم الإيباري - عبد  
العظيم شليبي، (٢٨-٢٧/٣).



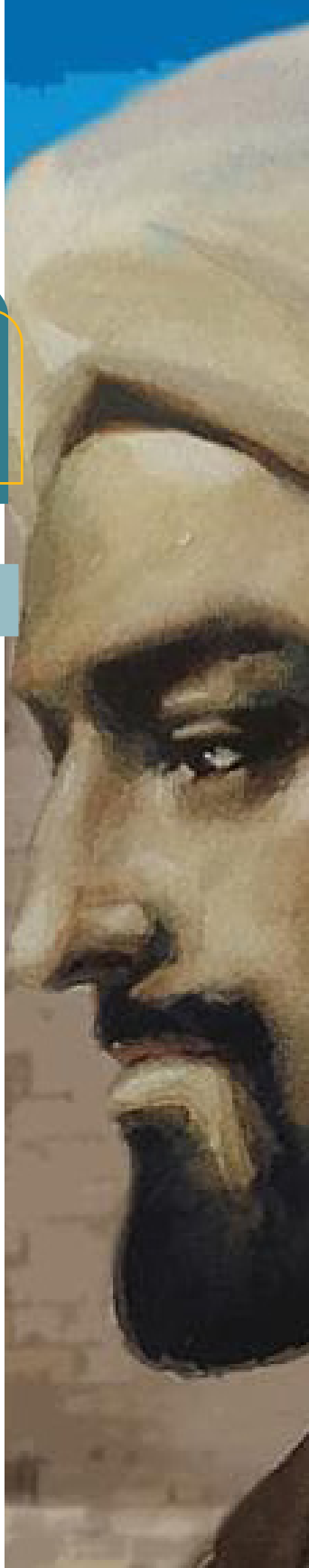
## \* المبحث الثاني: الرؤية الخلدونية لمعالجة هذا الخلل والمنهج المقترح في باب التأليف والتدريس

رسم ابن خلدون خارطة طريق لتجديد تلقين العلوم الشرعية سواء تعلق الأمر بالتأليف في هذه العلوم أو المنهج الذي يجب أن يُعتمد في التدريس.

### المطلب الأول: المنهج المقترح في باب التأليف:

خاطب ابن خلدون المهتمين بشأن التأليف في العلوم الشرعية، وذكرهم أنه إذا كان قصدهم هو النهوض بالتعليم وتحقيق بغيته، فإنه ينبغي أن يكون غاية هذا التأليف إما استنباط أو توضيح لما استغلق على الأفهام أو الكشف عن الخلل في كتابات من سبق في الباب، مع التدليل على ذلك بالبرهان الساطع الذي لا يكتفه غموض أو غمط لجهود السابقين، أو من أجل إكمال ما أُغفل أو وقع سهو في تحرير بعض من مسائله، ليكتمل ذلك الفن ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وبيّن -رحمه الله- أن من مقاصد التأليف: العمل على جمع مسائل فن من فنون العلوم الشرعية أو العلوم الإنسانية ككل في أبواب منتظمة مع تهذيبها حتى يسهل على المطلع الغرف من معيها والاستفادة منها على نحو من اليسر مع الاغتباط، وضرب لذلك أمثلة: كالمدونة المالكية، فإن كثيرًا من مسائلها الفقهية ضلت مبعثرة حيث نجد في كل باب مسائل من غيره، لهذا هذبها ابن أبي زيد القيرواني، يقول: "أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل



مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم، وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة؛ فنجد في كل باب مسائل من غيره، واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده<sup>(١)</sup>.

كما اقترح على الباحثين حين يقدمون على التأليف في مسألة من المسائل تتداخلها علوم أخرى أن ينهوا المتخصصين للإدلاء بدلهم في إغناء هذا الباب من جانب تخصصهم حتى يتحقق ذلك التكامل المعرفي وتتحقق الفائدة، بل والاستفادة من كل جانب وفي فنون عدة، يقول: "أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان؛ فإن عبد القاهر الجرجاني وأبأ يوسف السكاكي وجدا مسائله متفرقة في كتب النحو، وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة، تنبّه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم"<sup>(٢)</sup>.

وهذه المسألة تدخل في إطار تكامل العلوم الإنسانية مع العلوم الإسلامية؛ لأن أساس هذه الأخيرة هو الوحي وهو كتاب كوني بالدرجة الأولى، وأضرب مثالا حتى يتضح المقال بحديث: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ"<sup>(٣)</sup>.

فاستقراء هذا الحديث يقتضي استدعاء متخصصين في علم النفس والتربية لدراسته والتدقيق في محتوياته لأجل بناء

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٦).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أخرجه مسلم في: (كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ج: ٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



إنسان متكامل. فقد أدخله الإمام النووي<sup>(١)</sup> في: "باب المجاهدة"، لكن المتخصصين الآن في علم النفس بإمكانهم دراسة هذا الحديث في ظل قواعد العلم الحديث لاستخراج الأسس والقواعد من أجل تمكين المسلم من الميكانيزمات المساعدة على استلهاهم قوة إدارة الذات.

يقول القاضي عياض في تعليقه على الحديث: "قد تكون القوة هنا في المنة وعزيمة النفس، فيكون أقدم على العدو في الجهاد وأشد عزيمة في تغيير المناكر والصبر على إيذاء العدو واحتمال المكروه والمشاق في ذات الله، أو تكون القوة بالمال والغنى فيكون أكثر نفقة في سبيل الخير، وأقل ميلاً إلى طلب الدنيا، والحرص على جمع شيء فيها، وكل هذه الوجوه ظاهرة في القوة"<sup>(٢)</sup>.

كما استنتج أبو المظفر الشيباني أن: "في هذا الحديث ما يدل على أن من المؤمنين القوي والضعيف: فإن في كل خير؛ إلا أن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وذلك لأن المؤمن القوي ينفع نفسه وينفع غيره؛ وربما تعدت منفعته إلى أهله وقومه وأمة دهره"<sup>(٣)</sup>.

ومثال آخر في باب العقيدة: من ذلك قضية القضاء والقدر، فلا يزال انتشار الفهم المغلوط لحقيقة هذه المسألة قائماً، وتواكل الناس عن تنمية ذواتهم ظاهراً، فلا يبذلون جهداً لأجل التغيير، ولا يجتهدون من أجل تحقيق شروط النهضة والازدهار، مستمسكين تمسك الغريق بأن هذا من قدر الله كما قالها من قبلهم: إنما نحن كالريشة في مهب الريح؟! فالعالم المتخصص في العقيدة يستجمع أقوال أهل الأثر في الباب لأجل تصحيح المفاهيم وإيضاح المقصود، ولعلي أتمثل بقولة

(١) ينظر: "رياض الصالحين"، الإمام النووي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (ص: ٦٧).

(٢) المصدر نفسه: (١٥٧/٨).

(٣) "الإفصاح عن معاني الصحاح"، أبو المظفر الشيباني، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، (٤٤/٨).





عمر: -ﷺ- الشهيرة لأبي عبيدة بن الجراح: حين صاح قائلاً:  
"نَعَمْ نَفَرٌ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ..." (١)

يقول ابن بطال في تعليقه على هذه القولة: "على المرء  
توقي المكاره قبل وقوعها، وتجنب الأشياء المخوفة قبل  
هجومها... فكذلك الواجب أن يكون حكم كل متقٍ من الأمور  
سبيله في ذلك سبيل الطاعون" (٢).

فالحذر من الأخطار مع الحزم في اتخاذ القرارات شيء رغب  
فيه الإسلام ودعا له، يقول أبو الوليد الباجي: "قال محمد بن  
عيسى الأعمش يريد عمر -ﷺ- بذلك لنكلته، نعم نفر من  
قدر الله إلى قدر الله، يريد أنه لا يعتمد أنه بالفرار ينجو مما  
قدر عليه، وإنما يعتقد أنه يرجع عما يخاف أن يكون قد قدر  
عليه من الوباء إن وصل إلى ما يرجو أن يكون قد قدر له  
من السلامة إن رجع، ولذلك يجوز للإنسان أن يتخذ الدرع  
والمجن ويفر من العدو الذي يجوز الفرار منه لكثرتة، ويجتنب  
الغرر والمخاوف، ولا يكون ذلك فراراً من قدر الله" (٣).

وهذا ما استخلصه القاضي عياض في قراءته لقولة  
عمر -ﷺ-، يقول: "وأن رجوعي ليس بفرار من قدر، ولكنه  
أخذ بالحذر والحزم الذي أمرنا الله به، وطلب الأسباب التي  
هي سوابق القدر وأسرار القضاء، كما أمر باتخاذ الحبن  
من العدو واجتناب المخاوف والمهالك، وكل شيء إنما  
يكون بما سبق به القدر، ثم مثل له مثلاً صحيحاً في هذا  
الباب مما يستعمله جميعهم كل وقت، ولا يختلف فيه من  
الانتقال في الرعي من الجنبه الجذبة إلى الخصبة، وأن هذا  
من الانتقال من وجه إلى وجه، لا فرق بينه وبين الانتقال

(١) "متفق عليه": أخرجه الشيخان: البخاري في: (كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون،  
ج: ٥٧٢٩)، ومسلم في: (كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيبة والكهانة ونحوها، ج: ٥٨٠٢)، من  
حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٢) "شرح صحيح البخاري"، ابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، (٤٢٣/٩).

(٣) "المنتقى شرح الموطأ"، أبو الوليد الباجي، (١٩٩/٧).



من القُدوم على الوباء أو الرجوع؛ إذ لا يكون من هذا كله إلا ما قدره الله، لكن على الإنسان طلب الأسباب والاكْتساب، وهو مثل قوله -عليه السلام-: "اعملوا فكل ميسر لما خُلق له." (١) وقوله: " اعقلها وتوكل " (٢).

فلو اعتمد على قول الجبرية (٣) ومن تبني مذهبهم في القدر لبقى واقفًا في مكانه، ولاستسلم لهذا الوباء بدعوى أنه من قدر الله، فلما أخذ بالأسباب نجا هو ومن معه. كذلك الأمة الآن في حاجة إلى الأخذ بالأسباب والتفكير في كيفية بناء إنسان متكامل يراعي التطورات مع التمسك بالأصول في المعتقد وغيره من الأحكام الشرعية القطعية.

فمثل هذه الآثار تمكن الفرد المسلم من الشعور بالطمأنينة ما دام هو في معية الله وتحت سلطانه، فتجعله يشعر بالتوحيد لجلاله وأن الأمر بيد الله، ومن ثم تتولد لديه القوة الدافعة للعمل لأجل الابتكار والعمل الجاد ليلبغ بهذه الأمة ذروتها في كل الميادين، فاختيار الطريق الأسلم وحسن الأخذ بالأسباب هو أيضًا من قدر الله تعالى لهذا قال عمر: "أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان أحدهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت بالخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيتها بالجدبة رعيت بقدر الله" (٤).

وَأتمثل أيضًا بحديث حذيفة بن يمان -رضي الله عنه- لما بعثه رسول

(١) "متفق عليه": أخرجه البخاري في: (كتاب: القدر، باب: وكان أمر الله قدرًا مقدرًا، ج: ٦٦٥)، ومسلم: (كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه، ج: ٦٧٦)، من حديث علي -رضي الله عنه- مرفوعًا.

(٢) "أكمال المعلم بفوائد مسلم"، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، (١٣٨٧).

(٣) "الجبرية": هم الذين ينفون الفعل حقيقة عن العبد ويضيفونه إلى الله تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل، وسمى ذلك كسباً، فليس بجبري. ينظر: "الملل والنحل"، الشهرستاني، (٨٥/١).

(٤) ينظر: "الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية"، ابن أبي الخير العمراني، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، (٤٩٩/٢).

الله -ﷺ- لاستطلاع أخبار العدو: "قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: "أَذْهَبَ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ." (١)

فهذا يظهر أن مسألة الخوف قد تقع من الإنسان المسلم، وليس معنى ذلك أنه منافق أو غير مطيع لأمر الله تعالى، فقد وقع ذلك لمن هم ذروة الإسلام وسنانه في الإيمان والجهاد، يقول أبو العباس القرطبي: "إن أصحاب رسول الله -ﷺ- كانوا أقوى في دين الله، وأحرص على إظهاره، وأحب في رسول الله -ﷺ-، وأشجع منك، ومع ذلك فقد انتهت بهم الشدائد، والمشاق إلى أن حصل منهم ما ذكره، وإذا كان هذا فغيرهم بالضعف أولى، وحاصله: أن الإنسان ينبغي له ألاّ يتمنى الشدائد والامتحان، فإنه لا يدري كيف يكون حاله فيها؛ فإن ابتلي صبر، وإن عوفي شكر" (٢).

-كما اقترح ابن خلدون أيضًا أن يكون القصد من التأليف هو رفع تلك الاستطرادات التي تميزت بها كتابات المتقدمين فتخليتها من ذلك والإبقاء على ما له علاقة بموضوع التأليف من شأنه أن يسهل الطلب والتحصيل، مع الحذر من الإخلال بمقصد المؤلف (٣).

وهذا الأمر من الأهمية بما كان لا سيما في زمن السرعة وقلة الصبر وضعف التحصيل؛ إذ ينبغي جرد كل الاستطرادات التي حوت كتابات المتقدمين حتى يسهل استيعاب تلك المواد بعد حصرها فيما يعد جوهراً للكتاب.

(١) أخرجه مسلم في: (كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب، ج: ٤٦٥٨)، من حديث إبراهيم عن أبيه يزيد بن شريك التيمي، عن حذيفة بن يمان به.  
(٢) ينظر: "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"، أبو العباس القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميسنو، ..... (٦٤٧/٣).  
(٣) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٦).



## -المطلب الثاني: المنهج المقترح في تدريس العلوم الشرعية:

قدم ابن خلدون منهجًا دقيقًا في التدريس لأجل التسهيل على طالب العلم التحصيل والاستفادة مما ينهله من العلوم، وهذا المنهج الذي ينبغي على المعلم اقتفاء أثره يعتمد على قواعد أساسية منها:

### أولًا-التدرج في التلقين:

ينبغي على المعلم أن يلقي أصول كل فن من الفنون ثم يقربها للطالب عن طريق شرحها في إجمال مع مراعاة قوة الاستيعاب لدى المتلقي حتى ينتهي إلى آخر ذلك الفن، يقول: "اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدرج، شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولًا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصًا ولا مبهمًا ولا منغلغًا إلا وضحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات"<sup>(١)</sup>.

وهنا يدخل أسلوب التكرار للاستيعاب، فجزيريل كان يتعاهد

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٧).

رسول الله ﷺ - لأجل تثبيت القرآن في صدره: يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: "تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهَوَّ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنَ الْإِبِلِ مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا"<sup>(١)</sup>.

يقول التوريتشي: "ومعناه -هاهنا- التوصية بتجديد العمل بقراءته؛ لئلا يذهب عنه وفي معناه (استذكروا القرآن): أي تفقدوا القرآن بالذكر وهو عبارة عن استحضاره في القلب وحفظه عن النسيان بالتلاوة"<sup>(٢)</sup>.

وقس على ذلك باقي العلوم الشرعية فإن اعتماد المعلم أسلوب التكرار من شأنه أن يساعد على ترسيخ المعلومة في ذهن المتلقي عوض الاكتفاء بحصة أو حصتين في الباب، فالخير كله في أن يتقن جزئية عوض أن يتلقى معلومات متتالية دون أن يكون قد استوعب أساسياتها، فلا يُحَصِّلُ منها إلا القشور دون أن يتمكن من معرفة أساسياتها.

## ثانياً: عدم التطويل في الفن الواحد والكتاب الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها:

فسلوك المتعلم في تدريس فن من الفنون منهج التقطيع بين مجالس تدريس ذلك الفن، والإطالة فيه من شأنه أن يحدث النسيان ويعسر حصول الملكة، يقول: "وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها؛ لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها، وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانية للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم

(١) "متفق عليه": أخرجه الشيخان: البخاري في: (كتاب: فضائل القرآن، باب: فضائل القرآن، ج: ٥، ٣٣)، ومسلم في: (كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: المر يتعهد القرآن، وكراهة قول: نسيت آية كذا، ج: ١٨٥٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.  
(٢) ينظر: "الميسر في شرح مصابيح السنة"، التوريتشي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، (٥٠٧/٢).

ارتباطًا وأقرب صبغة: لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه<sup>(١)</sup>.

### -ثالثًا: التركيز على تلقين فن واحد-

لا بد من التوجيه نظر المتلقي إلى فن واحد حتى يستطيع إدراك أصوله وجميع متعلقاته، فقلما يستطيع المتعلم التمرس وإدراك فنَّين في نفس الآن، يقول ابن خلدون: "ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمين معًا، فإنه حينئذ قلَّ أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معاً ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة، وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرًا عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله"<sup>(٢)</sup>.

### -رابعًا: التشجيع على المناقشة وإبداء الرأي-

لقد مارس ابن خلدون مهنة التدريس، ولذلك فإنه كان ملقًا إمامًا كاملاً بالمناهج التي كان تلقن بها العلوم الشرعية، حيث كان معظم المعلمين يقتصرون على التلقين ويلزمون المتعلمين الاستماع فقط، فلا يأذن لهم بمناقشة المسائل ولا الجدل لأجل البيان، مما كَوَّنَ أجيالاً من الحُقَّاظ الغير المكتسبين لملكة المناظرة والاجتهاد، وقد صور لنا ابن خلدون هذا الواقع المرير يقول: "بقيت فاس وسائر أقطار المغرب خُلُوءًا من حُسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم، وأيسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية،

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٨-٥٩٩).

(٢) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٥٩٩).

فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها؛ فتجد طالب العلم منهم، بعد زهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوّتا لا ينطقون ولا يفادون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة؛ فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل، تجد ملكته قاصرة في علمه إن فادوس أو ناظر أو علم، وما أتاها القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ من سواهم، لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك<sup>(١)</sup>.

ولذلك فإن تحفيز المتلقي على مناقشة المسائل التي يطرحها المعلم والحض على الكلام وطرح السؤال من شأنه أن يعزز حضور الطالب ويقوي شخصيته وملكة الفهم لديه، وهذا دأب الأولين من الصحابة الكرام، فقد روى البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "كَانَ عَمْرٌ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءَ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ» قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُبَيْتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِثِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١٠٠﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿١٠١﴾﴾ [النصر: ١-٢] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمِزْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصِرْنَا وَفَتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَذْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسِ، أَكَذَلِكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- أَغْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتُحَ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عَمْرٌ: مَا أَغْلَمَ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ<sup>(٢)</sup>.

فاختيار عمر -رضي الله عنهما- لإدخال ابن عباس في اجتماع الكبار لم يكن اعتباطًا؛ ولكن لإدراكه أن له ملكة الفهم التي اكتسبها

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه"، (كتاب: المغازي، باب، ج: ٤٣٩٤).



من الإلحاح في طلب العلم، ولأنه كان سؤوًا، ولما لاحظ المهاجرون ما أقدم عليه عمر -رضي الله عنه- حز في أنفسهم ألا يحضر أبناؤهم أيضا لهذا قالوا: "ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس قال: ذاكم فتى الكهول إن له لسانًا سؤوًا وقلبًا عقوًا"<sup>(١)</sup>

يقول ابن حجر في تعليقه على الحديث: "وفيه فضيلة ظاهرة لابن عباس وتأثير لإجابة دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين...وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا لإظهار نعمة الله عليه وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته وغير ذلك من المقاصد الصالحة لا للمفاخرة والمباهاة، وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ولهذا قال علي -رضي الله تعالى عنه- أو فهما يؤتية الله رجلا في القرآن"<sup>(٢)</sup>.

### -خامسًا: عدم التشديد على المتعلم-

وذلك باعتماد التوسط والاعتدال: لأن التشديد من شأنه أن يضيق على النفس في انبساطها، ويذهب بنشاطها، وكما قالها عمر -رضي الله عنه-: من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله؛ حرصًا على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلما بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته، ومن ثم اقترح ابن خلدون مذهب الرشيد في تعليم ولده، قال: "ومن أحسن مذاهب التعليم، ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده، قال خلف الأحمر<sup>(٣)</sup>: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه

(١) "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، ابن حجر العسقلاني، (٧٣٥/٨).

(٢) "فتح الباري"، (٧٣٦/٨).

(٣) "خلف الأحمر": هو خلف الأحمر بن حيان بن محرز أبو محرز، مولى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، أحد الشعراء المحسنين، وكان يبلغ من حذقه واقتداره أن يشبه شعره بشعر القدماء، ينظر ترجمته في: "إنباه الرواة على أنباه النحاة"، أبو الحسن القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (٣٨٣/١).



وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين؛ أَقْرَبُهُ الْقُرْآنَ، وَعَلَّمَهُ الْأَخْبَارَ، وَرَوَّاهُ الْأَشْعَارَ، وَعَلَّمَهُ السُّنَنَ، وَبَصَّرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ وَبَدَّاهُ، وَافْتَنَّهُ مِنَ الضَّحْكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ، وَخُذَهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، وَرَفَعَ مَجَالِسَ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ، وَلَا تَمَرَّنْ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مَغْتَنِمٌ فَائِدَةٌ تَفِيدُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْزَنَهُ، فَتَمِيتَ ذَهَنَهُ، وَلَا تَمَعْنَ فِي مَسَامِحَتِهِ، فَيَسْتَحْلِي الْفِرَاقَ وَيَأْلَفُهُ، وَقَوِّمَهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَايِنَةِ، فَإِنْ أَبَاهُمَا؛ فَعَلَيْكَ بِالشَّدَةِ وَالْغَلْظَةِ"<sup>(١)</sup>.

### **-سادسًا: التركيز على العلوم الأصيلة التي تقتضي البحث والتفصيل مع الاختصار في العلوم التي هي مجرد أداة مساعدة على التحصيل:**

اعتبر ابن خلدون أن العلوم المتعارف عليها بين أهل العمران تدخل ضمن صنفين من العلوم: علوم مقصودة لذاتها؛ كالشروعات من التفسير والحديث والفقه وأصول الدين... وأخرى هي وسيلة لهذه العلوم، مثل: العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن يوسع الكلام فيها ولا يُفَرَّغَ عنها المسائل؛ لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، ويهدر الوقت في تحقيق الموعود، يقول: "إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوًا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها، وربما يكون ذلك عائقًا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها، مع أن شأنها أهم، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعًا للعمر وشغلاً بما لا ينبغي". وقد ضرب لذلك أمثلة منها: ما قام به صناع النحو والمنطق حين أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلًا واستدلالًا

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٦٥).

وأكثرها التفاريع والمسائل مع أنه ليست حاجة مقصودة بذاتها، لهذا وصفها بأنها من اللغو الذي يضر المتعلمين ولا يقدم لهم نفعاً، إذ ينبغي تركيز انتباه المتعلمين على العلوم لا على الوسائل يقول: "... وهي أيضاً مضرّة بالمتعلمين على الإطلاق؛ لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل؛ فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل، فمتى يظفرون بالمقاصد، فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسألها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده؛ فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل، ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية به فليختر لنفسه ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً"<sup>(١)</sup>.

يظهر أن الرؤية الخلدونية قدمت منهجاً نيراً من شأنه أن يلهم المعلم تلك العلوم التي ينبغي أن يعيرها الأولوية لتلقيها للتعلم، ومن ثم اعتبار العلوم الأخرى مجرد آليات تساعد على استكناه العلوم الرئيسة وسبر أغوارها.

### **-سابعاً: الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم:**

ذهب ابن خلدون إلى أن رسوخ العلم لا يصل إلى ذروته إلا بمحاكاة الشيوخ، والأخذ عنهم مباشرة يقول: "ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيماً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً"<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: "مقدمة ابن خلدون"، (ص: ٦١).

(٢) المصدر نفسه: (ص: ٦٤).

ولعمري إن أخذ العلم مشافهة من أفواه العلماء والمشايخ يعد من الشروط الأساسية لضبط العلم ورفع الشبه والالتباسات، وأيضاً ضبط المشكل من الأسماء والاصطلاحات، وقد ذكرني هذا الموضوع بأحد طلبة العلم عندما أراد أن يتفيهاق على معلمه فسأله عن الإمام أبي حنيفة ولكنه نطقها: "أبو حُنَيْفَةَ"؟؟؟ وقد تكرر هذا أيضاً مع طالب آخر عندما أراد أن يتحدث عن ابن معين فقال: "يحيى بن مُعِين"، مما يبين أن أخذ العلم مشافهة من أفواه الرجال يعد من الركائز التي تعين على رسوخ العلم وضبطه كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته.

أما تحصيل الملكة فيقتضي الجلوس إلى عدد من المشايخ الذين تختلف طرقهم واصطلاحاتهم في تلقين ذلك العلم وتوصيله إلى المتلقي، ولن تتحقق تلك الفضلى إلى لمن استطاع الرحلة في طلب العلم، يقول: "فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ، يفيد في تمييز الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم؛ وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية؛ فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال"<sup>(١)</sup>.

وهذه المسألة قد فطن لها الرعيل الأول من العلماء بدءاً من أصحاب النبي -ﷺ- فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "لَمَّا تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِّنَ الْأَنْصَارِ: يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلَنَسْأَلَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ -ﷺ-، فَإِنَّهُمْ الْيَوْمَ كَثِيرٌ». فَقَالَ: وَاعْجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ

(١) المصدر نفسه: (ص: ٦٥-٦٦).



النَّبِيِّ ﷺ - مَنْ تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَآتَوْسَدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِ التُّرَابِ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أُرْسَلْتُ إِلَيْكَ فَآتَيْتُكَ؟ فَأَقُولُ: لَأ، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتَيْتُكَ. فَاسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَأَيْتِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي»<sup>(١)</sup>.

وكذلك عندما شد جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- الرحال إلى الشام لأجل سماع حديث واحد من الصحابي الجليل عبد الله بن أنيس، يقول جابر -رضي الله عنه-: "بَلَّغُنِي عَنْ رَجُلٍ مِّنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - حَدِيثٌ فِي الْقِصَاصِ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ فَابْتَغْتُ بَعِيرًا فَسَدَدْتُ رَحْلِي، ثُمَّ سِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ مِصْرَ - أَوْ قَالَ: الشَّامَ - فَآتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَنَيْسٍ فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَّغُنِي عَنْكَ تُحَدِّثُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِّنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَلَمْ أَسْمَعْهُ فِي الْقِصَاصِ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ..."<sup>(٢)</sup>.

(١) "إسناده صحيح": أخرجه ابن سعد في: "الطبقات الكبرى"، (٢٨٠/٢)، والدارمي في: "سننه"، (باب: الرحلة في طلب العلم، واحتمال العناء، ج: ٥٩٠)، والحاكم في: "المستدرک"، (كتاب: العلم، ج: ٣٦٣)، وابن عبد البر في: "جامع بيان العلم وفضله"، (باب: توفير العالم والعلم، ج: ٥٧٠)، من طريق يزيد بن هارون، عن جرير بن حازم، عن يعلى بن حكيم، عن عكرمة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- به.

قلت: رجاله من الثقات عدا جرير بن حازم: فهو ثقة، في حديثه عن قتادة ضعف، وله أوهام إذا حدث من حفظه. "التقريب"، (ص: ١١٣٧)، لكن في هذا الحديث يروي عن يعلى بن حكيم وهو من الثقات، كما أن الذهبي قال في ترجمته: "اغترفت أوهامه في سعة ما روى". "سير أعلام النبلاء"، (١٠٠/٧)، ومن ثم فإسناد الحديث صحيح لهذا صححه الحاكم في: "المستدرک"، (ج: ٣٦٣)، ووافقه الذهبي في: "تخليصه"، (ج: ٣٦٣)، وقال: على شرط البخاري.

(٢) "إسناده صحيح": أخرجه ابن اسامة في: "بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث"، (باب: الرحلة في طلب العلم، ج: ٤٤)، والرويان في: "مسنده"، (عبد الله بن أنيس الجهني، ج: ١٤٩١)، والحاكم في: "المستدرک على الصحيحين"، (كتاب: العلم، ج: ٨٧١٥)، والبيهقي في: "الأسماء والصفات"، (باب: جماع أبواب ذكر الأسماء التي تثبت أثبات التدبير له، ج: ١٣١)، وابن عبد البر في: "جامع بيان العلم وفضله"، (باب: ذكر الرحلة في طلب العلم، ج: ٥٦٥)، كلهم من طريق القاسم بن عبد الواحد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- به. قلت: القاسم بن عبد الواحد بن أيمن المكي: مقبول. "التقريب"، (ص: ٦٢٩)، وعبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب القرشي: صدوق في حديثه لين. "التقريب"، (ص: ٤٢٦)، قال ابن عبد البر: هو أوثق من كل من تكلم فيه. "تهذيب التهذيب"، (١٥/٦)، وهو يروي عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله وهو بدوره حدث عن الصحابي: عبد الله بن أنيس الجهني. وقد صحح هذه الرواية الحاكم في: "مستدرکه"، (ج: ٨٥١٧)، ووافقه الذهبي في: "تخليصه"، (ج: ٨٥١٧)، والله أعلم.

ولم يستنكف أهل الاتباع من السير على سنن الصحابة، منهم: الإمام الشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، فقد كان دأبهم الرحلة لأجل ملاقات المشايخ والأخذ عنهم، وقد عقد الخطيب بغدادى كتابا سماه: "الرحلة في طلب الحديث" وذكر فيه عددا من العلماء الذين كانت الرحلة سبيلهم لتحصيل العلم.

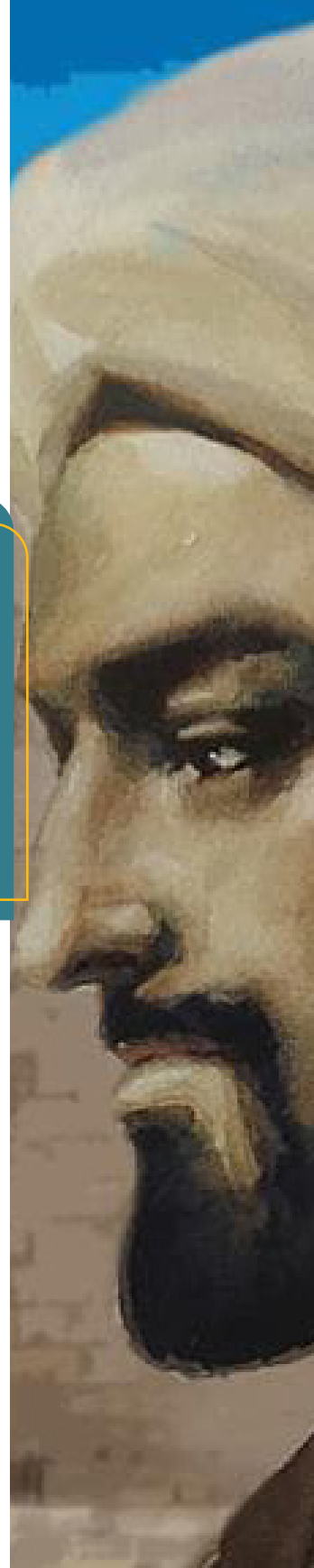
## ★ الخاتمة

هذه أهم المباحث التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، قدم من خلالها رؤيته الثاقبة لإصلاح التعليم وتجديد مناهجه سواء تعلقت بالتأليف أو بالتدريس، ولا شك أن هذا البحث سيشكل فواتح لعلوم أخرى يمكن أن تسهم في إغنائه من شتى التخصصات، وهدفي من وراء تحريره هو تقديم رؤية شمولية عن هذا المنهج.

فنحن اليوم بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في المناهج المعتمدة في تدريس العلوم الشرعية وذلك لأجل تحقيق البغية من تدريسها، ولعل في رؤية ابن خلدون باعتباره عالم اجتماع من شأنها أن تزيل بعض الصعاب في وضع خارطة طريق لإعادة البناء برمته، وبالتالي تحقيق المقصد.

فإن كنت أصبت الهدف فيتوفيق من الله وإن كان غير ذلك فمن نفسي أو الشيطان، فمن رأى فيه نقصا فليسد الخلل، وقل رب زدني علما.

هذا وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يبارك هذا العمل، وأن يمن علي بحسن القبول وصى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، تحقيق: مصطفى السقا- إبراهيم الإبياري - عبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.
- الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين الخُسْرُو جِردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة السوادي، جدة- المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة، أبو المظفر الشيباني (ت: ٥٦٠هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ، بدون طبعة.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل (ت: ٥٤٤هـ)، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط: ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي-القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية-بيروت، ط: ١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٢م.
- الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية، أبو الحسين يحيى

بن أبي الخير العمراني (ت: ٥٥٨هـ)، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، الحارث بن محمد التميمي المعروف بابن أبي أسامة (ت: ٢٨٢هـ)، المنتقى: نور الدين الهيثمي (ت: ٨٠٧ هـ)، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة، ط: ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

- تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، ومعه: تحرير تقريب التهذيب، د. بشار عواد معروف، والشيخ شعيب الأرنؤوط، ضبطه وعلق عليه: سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط: ١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

-تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط: ١، ١٣٦٦هـ.

- جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٥٢٥هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط: ١، ١٤٢٢هـ.

- الرحلة في طلب الحديث، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٣٩٥هـ.

- رياض الصالحين، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط: ٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- سنن الدارمي (مسند الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد



- الرحمن الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن قَائمَاز الذهبى (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: ٣، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.
- شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال (ت: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد-السعودية، الرياض، ط: ٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣ م.
- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري، المعروف بابن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م.
- المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١١ - ١٩٩٠م.
- مسند الروياني، أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت: ٣٠٧هـ)، تحقيق: أيمن علي أبو يماني، مؤسسة قرطبة - القاهرة، ط: ١، ١٤١٦هـ.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، دار صادر: بيروت، [د-ت].





- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت: ٩١٤هـ)، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت: ٦٥٦ هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، ط: ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت: ٨٠٨هـ)، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط: ١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٦م.

- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)، مؤسسة الحلبي، [د-ت].

- الميسر في شرح مصابيح السنة، فضل الله بن حسن، شهاب الدين التُّوريشي (ت: ٦٦١ هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط: ٢، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ هـ

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد المقرئ التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت-لبنان، طبع سنة: ١٩٠٠م.

- نيل الابتهاج، لأحمد بابا التنبكتي (ت: ١٠٣٦هـ)، عناية وتقديم: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، طرابلس-ليبيا، ط: ٢، ٢٠٠٠م.

